

عبد الحميد جمال الفراني

كلية الدعوة-غزة-فلسطين

المؤسَّساتُ والمراكزُ العلميَّةُ في القدس

(١٣٢-١٤٩٢هـ/٧٥٠-١٠٩٩م)

مقدمة:

شهدت القدس خلال فترة الدراسة حركة علمية تميزت بالحيوية والنشاط بشكل عام، في شتى المجالات العلمية والتعليمية، وقامت هذه الحركة على عدد من المؤسسات والأنظمة التي كفلت للعالم والمتعلم بيئةً وأساليب تُعين كلاً منهما على العطاء والتحصيل، كما قامت على امتداد مساحة فلسطين عدد من المدن التي تميزت بدورها ونشاطها في هذا المجال، وقد كان يعترها بعض الفتور، وتخبو جذوتها، تبعاً لتقلبات الحياة السياسية التي كانت تعانيها بلاد الشام عامة، وفلسطين بشكل خاص، فكانت تلك الأحوال السياسية لا تؤثر على سير الحياة العامة، أو العلمية والثقافية، ولم تكن توقف عجلتها.

وقد صور لنا ابن العربي (ت: ٥٤٢هـ)، الأحوال العلمية في القدس، وكيف أنه رغم الثورات، والفتن، وانعدام الأقوات؛ فإنها لا تتوقف، فالقدس «عَلَى صِغَرِهِ مُسْتَمِرٌّ عَلَى حَالِهِ، مَا أُغْلِقَتْ لَهُذِهِ الْفِتْنَةُ سُوقٌ، وَلَا سَارَ إِلَيْهَا مِنَ الْعَامَّةِ بَشَرٌ، وَلَا بَرَزَ لِلْحَالِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مُعْتَكِفٌ، وَلَا انْقَطَعَتْ مُنَازَرَةٌ، وَلَا بَطَلَ التَّدْرِيسُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ الْعَسْكَرِيَّةُ قَدْ تَفَرَّقَتْ فِرْقَتَيْنِ يَمْتَنِعُونَ، وَلَيْسَ عِنْدَ سَائِرِ النَّاسِ لِدَلِكْ حَرَكَةٌ عَلَى النِّقِيزِ مِمَّا يَحْصِلُ فِي بِلَادِ ابْنِ الْعَرَبِيِّ»^(١)، فلو حدث مثل ذلك لَاضْطَرَمَّتْ نَارُ الْحَرْبِ فِي الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ، وَلَا نَقَطَعَتِ الْمَعَايِشُ، وَغُلِقَتِ الدَّكَائِكُ، وَبَطَلَ التَّعَامُلُ لِكَثْرَةِ فُضُولِنَا وَقِلَّةِ فُضُولِهِمْ»^(٢). ولعل هذا الأمر من بركات القدس، الذي بارك الله «لسكانه في

١- أصل ابن العربي من مدينة إشبيلية، بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة، وهي: «مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس، تسمى (حمص) أيضا وبها قاعدة ملك الأندلس وسريه وبها كان بنو عباد ولماهم بها خربت قرطبة وعملها متَّصل بعمل لبلة وهي غربي قرطبة بينهما ثلاثون فرسخا». ياقوت، معجم، ج ١، ص ١٩٥.

٢- ابن العربي: أحكام، ج ٤، ص ٨. يتحدث ابن العربي هنا وفق تجربة حدثت معه شخصيا، فقد راح ابنه عبد الله ضحية، وقتل من غير قصد، خلال الحرب التي دارت بين المرابطين، و الموحيدين، الذين نجحوا في السيطرة على إشبيلية، في شعبان سنة =

معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروهم»^(١).

وسيتناول هذا البحث بالدراسة أهم المؤسسات والمراكز التي مارس فيها العلماء وطلاب العلم نشاطهم العلمي والثقافي في مدينة القدس على وجه الخصوص، في الفترة الواقعة من قيام الخلافة العباسية، وحتى سقوط القدس بأيدي الصليبيين في العام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م. وسيتم دراسة الموضوع ضمن ثمان مطالب تناولت المؤسسات والمراكز العلمية في القدس، اشتملت على عدد من المحاور، وهذه المطالب هي:

أولاً: الكتابات.

ثانياً: المساجد.

ثالثاً: المدارس.

رابعاً: دور العلم الصوفية.

خامساً: دور العلم.

سادساً: المجالس العلمية الخاصة والعامة.

سابعاً: المكتبات.

ثامناً: البيمارستانات.

وقد اعتمد الباحث في دراسته وإيراده للمعلومات على المنهج الاستقرائي في جمع المادة العلمية لموضوع البحث، ثم اعتمد المنهج الانتقائي، وكذا الوصفي التاريخي لبيان مؤسسات ومراكز العلم في القدس.

متن البحث:

تعددت روافد الحركة الفكرية في القدس، وتمثلت في إنشاء العديد من المراكز العلمية سواء كانت في المساجد، والمدارس، والزوايا، والمكتبات، والخوانق، والبيمارستانات^(٢).

(١) (٥٤١هـ)، مما يعني أن الحرب كما صورها ابن العربي، في بلاده، كانت تأتي على كل شيء، وتوقف عجلة الحياة، على العكس مما رآه في القدس، خلال رحلته العلمية، التي استمرت ثلاث سنوات، قضاها في فلسطين. انظر: السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد بن محمد الناصري الدرعي الجعفري (د.ط): الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، المحقق: جعفر الناصري/ محمد الناصري، الدار البيضاء، دار الكتاب، ج٢، ص١١٧. ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون (١٣٩١هـ/١٩٧١م): العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، المعروف بتاريخ ابن خلدون، بيروت - لبنان، منشورات مؤسسه الأعلمي للمطبوعات، ج٦، ص٢٢٤.

١ - الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ج١٧، ص٣٥١.

٢ - سيتم الحديث عنها بالتفصيل في نقاط لاحقة بمشيئة الله تعالى.

ومهما يكن من أمر فقد أفادت المصادر بتقدم الحياة العلمية والثقافية في القدس في الفترة موضوع الدراسة، وتعددت الأماكن التي كانت تعد مراكز لاحتضان العلماء وطلاب العلم، وأماكن لتعليم الناس وإفتاءهم، ومن هذه المراكز:

أولاً: الكتاتيب^(١) أو المكاتب:

وهي موضع تعليم القراءة والكتابة للصبيان، وتعد من المؤسسات التعليمية المهمة التي وجدت في العالم الإسلامي لتعليم وتربية الصغار التربية الإسلامية الصحيحة^(٢).

وتُعد الكتاتيب من المراكز التي كان لها علاقة بالحياة العلمية في القدس، كما أنها أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجوداً في العالم الإسلامي، حيث انتشرت في فلسطين، وخاصة في مدينة (الرملة)^(٣)، منذ فجر التاريخ، ويبدو أن مدينة (يافا) هي الوحيدة في فلسطين التي لم يكن فيها كُتّاب، فقد نقل ياقوت^(٤) عن «ابن بطلان في رسالته التي كتبها في سنة ٤٤٢هـ: ويافا بلد قحط والمولود فيها قل أن يعيش حتى لا يوجد فيها معلم للصبيان».

١- الكتاتيب: الكتاب موضع تعليم الكتاب والجمع كتاتيب، ومكاتب: مفردتها مَكْتَبٌ، وهو أيضاً: موضع التعليم، ويقال لصبيان المَكْتَبِ الفُرْقَانُ أيضاً، والمكتب و المَكْتَبُ: المعلم، ومن ألقابه الحفائي، والمكتب موضع الكتاب، والمكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب، ورجل كاتب، والجمع: كُتّاب وكتبة، وحرفته الكتابة، والكتبة: الحالة، واستكتبه: أمره أن يكتب له، والكتاب ما كتب فيه، والجمع كتب. انظر: السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي (١٢٨٢هـ/١٩٦٢م): الأنساب، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ج ١٢، ص ٤١٠. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الرويفي الإفريقي (١٤١٤هـ/١٩٩٣م): لسان العرب، بيروت - لبنان، دار صادر، ط ٢، ج ١، ص ٦٩٨. الجندي، بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي (١٤١٦هـ/١٩٩٥م): السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوخ الحوالي، صنعاء اليمن، مكتبة الإرشاد، ج ١، ص ٢٨١. الخزاعي، علي بن محمد بن أحمد بن موسى ابن مسعود، أبو الحسن ابن ذي الوزارتين: تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله من الحرف والصناعات الشرعية، المحقق: إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ٢، (١٤١٩هـ)، ص ٨٦.

٢- دهيش، عبد اللطيف عبد الله: «الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما»، مكة، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٩٨٦م، ص ١١.

٣- ابن القلانسي، أبو يعلى التميمي حمزة بن أسد بن علي بن محمد (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م): ذيل تاريخ دمشق، المحقق: د سهيل زكار، دمشق - سوريا، دار حسان للطباعة والنشر، ص ١٥٩. أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (د.ت): المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، ج ١، ص ٥٤٤. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (١٤١٣هـ/١٩٩٣م): تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ج ٣٠، ص ٢٩٦.

٤- ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (١٤١٦هـ/١٩٩٥م): معجم البلدان، بيروت - لبنان، دار صادر، ط ٢، ج ٥، ص ٤٣٦.

وكانت أماكن هذه الكتابات إما في المسجد^(١)، أو في بيت المدرس^(٢)، أو بشكل مستقل^(٣).
وقد كان أكثر من يلتحق بها من الأيتام^(٤)، وكانت تلك الكتابات مختلطة، تضم البنات، والصبيان معاً في مكتب واحد^(٥).

وقد كان هدف هذه الكتابات ينحصر في المقام الأول في تربية الأطفال على الفضائل والمحامد، وتعليمهم قراءة القرآن، وحفظه، إضافة إلى مبادئ القراءة، والكتابة، والخط، والإملاء، وبعض الشعر، وأصول الحساب^(٦). «ويتعلمون الخط في الأشعار وغيرها، تنزيهاً لكتاب

١- الذهبي: تاريخ، ج ٤٠، ص ٢٣٠.

٢- التنوخي، المحسن بن علي بن محمد بن أبي الفهم داود التنوخي البصري، أبو علي (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م): الفرج بعد الشدة تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، دار صادر، ج ٣، ص ٢٦٢. الصُرَيْفِيُّ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَزْهَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعِرَاقِيِّ، تَقِيُّ الدِّينِ الْحَنْبَلِيُّ: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، المحقق: خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع، (١٤١٤هـ)، ص ٤٧٤. الذهبي، تاريخ، ج ٣٦، ص ٢٢٥.

٣- ابن القلانسي: ذيل، ص ١٥٩. أبو الفداء: المختصر، ج ١، ص ٥٤٤. شلبي، أحمد: «تاريخ التربية الإسلامية»، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م)، ص ٤٨. العمري، عبد الله منسي السعد: «تاريخ العلم عند العرب»، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع (١٤١٠هـ/١٩٩٠م)، ص ١٨. الزرو، خليل داود: «الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة»، بيروت، دار الآفاق الجديدة، (١٣٩١هـ/١٩٧١م)، ص ٢١. جودة: مدينة الرملة، ص ٢٨٥. وقد بلغ من حرص عبد الله بن محمد بن يوسف التجيبي، أنه كان يعلم الصبيان في الشارع. انظر: الذهبي: تاريخ، ج ٦، ص ٢٤٣.

٤- النعمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (١٤١٠هـ/١٩٩٠م): الدارس في تاريخ المدارس، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ج ١، ص ١٦٩، ١٢، ٨.

٥- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، جار الله (١٤١٢هـ): ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، بيروت، مؤسسة الأعلمي، ج ٣، ص ٧٨. ابن حمدون، محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، أبو المعالي، بهاء الدين البغدادي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): التذكرة الحمدونية، بيروت - لبنان، دار صادر، ج ٢، ص ٢٥١. الأبهسي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور أبو الفتح (١٤١٩هـ): المستطرف في كل فن مستطرف، بيروت، عالم الكتب، ص ١٦٦.

٦- السمعاني: الأنساب، ج ١٢، ص ٤١٠. عياض، أبو الفضل القاضي عياض بن موسى الجحسبي (١٢٨٥هـ/١٩٦٥م): ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاويت الطنجي، المغرب - مطبعة فضالة المحمدية، ج ٦، ص ٢٩٤. الصُرَيْفِيُّ، أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ الْأَزْهَرِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعِرَاقِيِّ، تَقِيُّ الدِّينِ الْحَنْبَلِيُّ (١٤١٤هـ): المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، المحقق: خالد حيدر، دار الفكر للطباعة والنشر التوزيع، ص ٥٤٢. السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م): معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، ط ١، مصر، مكتبة الخانجي، ص ١٣٠. الذهبي، تاريخ، ج ١٥، ص ١٢٧، ج ١٨، ص ١١٦. ابن قدامة، محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف، شمس الدين المقدسي الدمشقي الحنبلي (د.ت): العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المحقق: محمد حامد الفقي، بيروت، دار الكاتب العربي، (د.ط)، ص ١٩. الشيزي، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، جلال الدين العدوي الشافعي (د.ت): نهاية الرتبة الظرفية في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (د.ط)، ص ١٦١. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي (د.ت): اعطاء الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: الجزء ١: حققه د جمال الدين الشيال، جامعة الإسكندرية، الجزء ٢، حققه د محمد حلمي محمد أحمد، ج ١، ص ٨٦. القنوجي: أبجد العلوم، ص ٧٠. التَّيَّارِيُّ، إِبْرَاهِيمُ بْنُ نَاصِفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَاصِفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نَاصِفِ بْنِ جَنْبِلَاطَ بْنِ سَعْدِ التَّيَّارِيِّ الْحَمَصِيِّ (١٩٠٥م): نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد، مصر، مطبعة المعارف، ج ٢، ص ٥٦. انظر: الخطيب، إبراهيم ياسين (١٤١٤هـ/١٩٩٣م): «دور التعليم في تحرير القدس إبان العصر الأيوبي»، عمان، (د.ن)، (د.ط)، ص ١٠٧. أحمد، محمد حلمي محمد: «الحياة العلمية في مصر والشام (٥٢١-٦٤٨هـ/١١٢٧-١٢٥٠م)»، القاهرة، المجلة التاريخية المصرية، المجلد السابع، (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م)، ص ٧.

الله عز وجل عن ابتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلاد المُلقَّن على حدة، والمُكْتَبُ على حدة فينفصل من التلقين التكتيب، لهم في ذلك سيرة حسنة، ولذلك ما يتأتى لهم حسن الخط؛ لأن المعلم له لا يشتغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم، والصبي في التعلم كذلك، ويسهل عليه؛ لأنه بتصوير يحذو حذوه»^(١).

ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي إلى طريقة غريبة في تعليم الصبيان؛ بحيث رأى تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس؛ لأن تعليم العربية في التعليم ضرورة لحفظ اللغة من الفساد، ثم ينتقل منه إلى الحساب، فيتمرن فيه حتى يرى القوانين، ثم ينتقل إلى درس القرآن؛ فإنه يتيسر عليك بهذه المقدمة، وفي ذلك يقول ابن العربي: «ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أوامره، يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم ما عليه منه»^(٢)، ثم قال: «ينظر في أصول الدين، ثم أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه»^(٣)، «ونهى مع ذلك أن يُخلط في التعليم علماً إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط»^(٤). وكان يتولى التدريس في الكتاتيب المؤدَّب^(٥)، أو العريف، أو المُكْتَب^(٦).

ثانياً: المساجد:

كانت المساجد أول الأبنية التي أُقيمت في الإسلام، تقام فيها الصلوات الخمس، وتتم فيها بيعة الخلفاء، ويدعى فيها القوم إلى الجهاد، ويتم فيها الفصل بين الناس، بالإضافة إلى المهمة الدينية التي بُنيت من أجلها، وكانت من أقدم المراكز التعليمية في الإسلام، وأكثرها انتشاراً،

١- ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكثاني الأندلسي، أبو الحسين (د.ت): رحلة ابن جبير، بيروت، دار ومكتبة الهلال، ص ١٠٣.

٢- ابن خلدون: تاريخ، ج ١، ص ٧٤٢.

٣- م.س.ص. ٧٤٢.

٤- م.س.ص. ٧٤٢.

٥- انظر ترجمته في: ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (١٤١٥هـ/١٩٩٥م): تاريخ دمشق، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج ٢٤، ص ٢٧. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز (١٤٠٥هـ/١٩٨٥م): سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط، بيروت - لبنان، مؤسسة الرسالة، ط ٣، ج ١٦، ص ١٥٢؛ العبر في خبر من غبر، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ١١٨؛ تاريخ، ج ٢٦، ص ٢٢٥. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م): الوالي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ج ١٨، ص ٢٤. ابن تقي بريدي، يوسف بن تقي بريدي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (د.ت): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، ج ٤، ص ١٠٩. ابن العماد الحنبلي، عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العكري الحنبلي، أبو الفلاح (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرنؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق - سوريا، بيروت - لبنان، ج ٣، ص ٤٨.

٦- ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (١٢٧١هـ/١٩٥٢م): الجرح والتعديل، الهند - حيدر آباد الدكن، مجلس دائرة المعارف العثمانية، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج ٣، ص ٢٢٧.

فقد عقدت فيها مجالس العلم، حيث كان العلماء والفقهاء والأدباء يجلسون، وحولهم تلاميذهم، وسمّيت مثل هذه المجالس بالحلقات التعليمية، أو حلقات العلم، ولذلك كانت المساجد بمثابة مراكز ومعاهد للعلم والثقافة، والوعظ ودراسة القرآن، والحديث والفقه واللغة، وغيرها من العلوم^(١).

وكانت فلسطين، وما زالت مشهورة بمساجدها، ويبدو أن الإصطخري قد استغرب من وجود نحو من عشرين منبراً بفلسطين «على صغر رقعتها»^(٢).

وخلال حكم (الأراتقة) بتقويض من (السلالة)، شهدت القدس عملية إحياء للمذهب السني، خاصة في دراسات الفقه الشافعي، والفقه الحنفي يعد قرن ويزيد من الاختلال العبيدي الإسماعيلي، وتظهر عملية الإحياء تلك من قيام الأمير (أرتق) ببناء مسجد جديد في داخل أسوار القدس عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م^(٣).

١ - المسجد الأقصى في القدس :

كان المسجد الأقصى في مقدمة المساجد الجامعة في فلسطين^(٤)، وكان بالإضافة إلى مكانته الدينية الرفيعة، مركزاً مهماً لحياة علمية نشطة، وتدرّس العلوم الإسلامية، مثل: علم الفقه، وعلم الحديث، وعلم الكلام، والتفسير، وأصبحت القدس تُعجّ بالعلماء والفقهاء الوافدين إليها من بلدان العالم الإسلامي المختلفة^(٥). ولا يغيب عن بالنا أنه قد استشهد بالقدس حين

١- ابن خلدون: تاريخ، ص ٢١٩-٢٢٠؛ ص ٣٤٩-٣٥٠. العمري، عبد الله منسي السعد (١٤١٠هـ/١٩٩٠م): «تاريخ العلم عند العرب»، عمان، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ص ٢٠-٢١. الوائلي، سمية: التعليم في بلاد الشام في العصر الأموي (رسالة ماجستير غير منشورة)، ص ٧٢-٧٥.

٢- الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م): المسالك والممالك، بيروت - لبنان، دار صادر، ص ٥٨.

٣- النقش الذي عثر عليه ويدل على بناء هذا المسجد هو: «بسم الله الرحمن الرحيم، تولى عمارة هذا المسجد المبارك و... ص وعليه مر (٩) رما ما من (٩) الله وسعه (٩) وذلك في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة. نقلًا عن الحيارى، مصطفى (١٩٩٤م): «القدس في زمن الفاطميين والفرنجة»، عمان الأردن، المعهد الملكي للدراسات الدينية، ص ٣٦.

٤- المسجد الأقصى: سمي الأقصى لأنه أبعد المساجد التي تزار، انظر: البعلبي، محمد بن أبي الفتح بن أبي الفضل البعلبي، أبو عبد الله، شمس الدين (١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م): المطلع على ألفاظ المقنع، المحقق: محمود الأرناؤوط وإياسين محمود الخطيب، مكتبة السوادي للتوزيع، ص ١٩٥. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م): نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة- مصر، دار الكتب والوثائق القومية، ج ١، ص ٣٢٦. قلججي، محمد رواس. وحامد صادق قتيبي (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م): «معجم لغة الفقهاء»، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ص ٨٢.

٥- ابن العربي، أبي بكر محمد بن عبد الله: قانون التأويل، دراسة وتحقيق: محمد السليمانى، جدة، دار القبلية للثقافة الإسلامية، بيروت، مؤسسة علوم القرآن، ص ٤٣٥-٤٤٢. أعراب، سعيد (١٩٨٧م): مع القاضي ابن العربي، بيروت- لبنان، دار الغرب الإسلامي، ص ٢٠٣-٢١٢. العسلي، كامل جميل (١٤٠٢هـ/١٩٨١م): «معاهد العلم في القدس»، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية، ص ٢٩، ٢٦؛ الفكر الديني: العلوم الإسلامية في فلسطين، بحث في الموسوعة الفلسطينية، بيروت، (١٤١١هـ/١٩٩٠م)، ج ٣، ق ٢، ص ٤٤٨. الحيارى: القدس، ص ١٤، ٤٣-٤٤. عبد المهدي، عبد الجليل حسن (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م): «الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والملوكي»، عمان، مكتبة الأقصى، ص ٣٢. عباس، إحسان (١٤١٤هـ/١٩٩٣م): «فصول =

اجتاحها الصليبيون مائة ألف جَلهم من العلماء، وهذا دليل كبير على مدى ازدهار الحياة العلمية في رحاب المسجد الأقصى^(١).

ولقد لعب المسجد الأقصى دوراً مهماً في ازدهار العلوم الدينية في فلسطين، والاهتمام بها، إلى جانب كونه مكاناً للتعبُّد، وأداء الشعائر الدينية، لما كان له من قيمة عظيمة، ومكانه دينية رفيعة في نفوس وأذهان المسلمين في شتى بقاع الأرض، كونه أولى القبلتين، وثالث الحرمين^(٢)، ومسرى النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، يقول الله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله»^(٣). لذا أصبح المسجد الأقصى من أهم المراكز التعليمية في فلسطين، فتجمّع فيه العلماء وطلاب العلم من جميع أنحاء الولايات

= حول الحياة الثقافية والعمرانية في فلسطين»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ص٢٦، «رحلة ابن العربي كما صورها قانون التأويل»، بيروت، الجامعة الأمريكية، مجلة الأبحاث، ٢٤، (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م)، ص٦٧.

١ - سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزأوغلي بن عبد الله البغدادي (١٩٩٠م): مرآة الزمان في تأريخ الأعيان من سنة ٣٤٥-٤٤٧هـ، دراسة وتحقيق: جنان جليل محمد الهموندي، بغداد، الدار الوطنية، ج١، ص٣٢٤، ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني (١٤١٥هـ/١٩٩٥م): الكامل في التاريخ، تحقيق: عبد الله القاضي، بيروت-لبنان، دار الكتب العلمية، ج٩، ص١٩، أبو الفداء: المختصر، ج٢، ص٢١١، ابن العبري، أبو الفرج غريغوريوس (واسمه في الولادة يوحنا) ابن أهرون (أو هارون) بن توما الملطى (١٤١٢هـ/١٩٩٢م): تاريخ مختصر الدول، تحقيق: أنطون صالحاني اليسوعي، بيروت لبنان، دار الشرق، ط٣، ص١٩٧، العلمي، مجير الدين أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الحنبلي (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، المحقق: عدنان يونس عبد المجيد نباتة، عمان - الأردن، مكتبة دنديس، ج١، ص٣٠٧-٣٠٩، ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): زبدة الحلب في تاريخ حلب، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ص٢٤٥، النويري: نهاية، ج٢٨، ص٢٥٦، الذهبي: تاريخ، ج٢٤، ص١٦، العبر، ج٢، ص٣٦٥، العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي شهاب الدين ابن فضل الله (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أبو ظبي، المجمع الثقافي، ج٢٤، ص٢٨٠، ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر ابن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين المعري الكندي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): تتمة المختصر في أخبار البشر، المعروف بتاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ج٢، ص١١، السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (١٤١٣هـ): طبقات الشافعية الكبرى، المحقق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ج٥، ص٣٢٣، اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (١٤١٧هـ/١٩٩٧م): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج٣، ص١١٨، ابن تغري بردي: النجوم، ج٥، ص١٤٨، المقريزي، أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر الحسيني العبيدي (١٤١٨هـ/١٩٩٧م): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج٢، ص١٩٦، اعطاء، ج٣، ص٢٣، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر (١٣٧١هـ/١٩٥٢م): تاريخ الخلفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج٥، ص٤٠١، شيخو، رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب (١٢٣١هـ/١٩١٣م): «مجانن الأدب في حداائق العرب»، بيروت - لبنان، مطبعة الآباء اليسوعيين، ج٦، ص٣١٤، وانظر: الزبدة، عيلة المهدي (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م): «القدس تاريخ وحضارة»، بيروت - دار نعمة للطباعة، ص١٠٠.

٢ - السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م): البلدانات، المحقق: حسام بن محمد القطان، السعودية، دار العطاء، ص٦٣.

٣ - سورة الإسراء، آية ١.

الإسلامية لزيارته، والتعبد فيه، ولإلقاء الدروس، ولتلقّي العلم فيه، فكانت تقام فيه حلقات العلم، وتدرّس العلوم المتنوعة، فقد روي عن عبيد الله بن محمد الفريابي، أنه قال: سمعت محمد بن إدريس الشافعي بالقدس يقول: «سلوني عما شئتم، أخبركم به من كتاب الله وسنة رسول الله»^(١). وقد اشتملت المعارف العلمية في القدس ومسجدها الأقصى على عدة علوم: كالقراءات^(٢)، وعلوم الحديث^(٣)، والأدب، وإنشاد الشعر^(٤)، كما كان «المذكّرون به قصاصاً، ولأصحاب أبي حنيفة بالمسجد الأقصى مجلس ذكر يقرؤون في دفتر»^(٥).

وممن قرأ العلم وحُدث بالمسجد الأقصى^(٦)، أو «جامع القدس» كما أطلق عليه ابن عساكر^(٧)، نذكر: الحسن بن أبي يحيى بن أبي السكن الأطروش^(٨)، وأبويوسف يعقوب بن إبراهيم الغزال المقرئ، الذي حدث عن أحمد بن يونس، إمام مسجد القدس، بالقدس، وكان من ولد شداد بن أوس^(٩)، وقال أبو الفضل بن أبي نصر «سمعت أبا حامد أحمد بن علي بن إسحاق الجرجاني الحافظ في مسجد القدس»^(١٠)، وحُدث الخَلعي علي بن الحسن ابن الحسين بن محمد، أبو الحسن الشافعي (ت: ١٠٩٩/٥٤٩٢ م) عن «أبو الفرج عبيد الله بن محمد النحوي بالقدس قراءة عليه في المسجد الأقصى»^(١١)، وحدث صدر الدين، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد

١- الأزدي، عبد الغني بن سعيد بن علي بن بشر بن مروان الأزدي المصري، أبو محمد: فوائد حديث الحافظ عبد الغني بن سعيد الأزدي عن شيوخه، المحقق: رياض حسين الطائي، الرياض، دار المغني، (١٤٢٥/٢٠٠٤ م)، ص ٥٢. ابن تميم المقدسي: شهاب الدين أبي محمود (١٩٩٤ م): مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، تحقيق: أحمد الخطيمي، بيروت، دار الجليل، ص ٣٥٤-٣٥٧. العلمي: الأنس الجليل، ج ١، ص ٢٩٤.

٢- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤، ص ٣٠٧؛ ج ٥٢، ص ٢٣٩، ٢٣٨؛ ج ٥٥، ص ١٩٧.

٣- ابن بطة، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكبري: الإبانة الكبرى، المحقق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، الرياض، دار الراية للنشر والتوزيع، (د.ط)، ج ٢، ص ٦٨٦. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٩، ص ٢٤٥؛ ج ٢٢، ص ٢٥٤؛ ج ٢٤، ص ١٣٠.

٤- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤٥، ص ٢٤٥.

٥- المقدسي، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري (١٤١١هـ/١٩٩١ م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، دار صادر، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، ط ٢، ص ١٨٢.

٦- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف (المتوفى: ٦٤٦هـ): بيروت، إنباه الرواة على أنباه النحاة، المكتبة العنصرية، (١٤٢٤هـ)، ج ٢، ص ١٩٠.

٧- تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٤٥؛ ج ٥٢، ص ٤٤٧.

٨- ابن بطة: الإبانة، ج ٢، ص ٦٨٦.

٩- البَجَرِيُّ، أَبُو عَمَّانَ سَعِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ بَجِيرِ النَّيْسَابُورِيِّ: الثالث من فوائد أبي عثمان البحيري، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ٢٠٠٤ م، ص ٥٥.

١٠- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٢٩.

١١- الخَلعي: الفوائد المنتقاة الحسان الصالح والغرائب (الخلعيات)، رواية: أبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي، تخريج: أحمد بن الحسن بن الحسين الشيرازي، مخطوط المكتبة الأزهرية: (رقم: ٦٥٩) ٥٧١٢، منشور إلكتروني عبر المكتبة الشاملة، ج ١، ص ٣٠٠.

بن إبراهيم سلفه الأصبهاني (ت: ٥٧٦هـ) «عن أبو عثمان محمد بن أحمد بن ورقاء الأصبهاني، بالقدس»^(١)، وعن أبي عثمان محمد الصوفي^(٢). كما أن نصر بن إبراهيم المقدسي قرأ النحو على أبي سعيد عبد الكريم بن إبراهيم بن محمد بن الحسن النحوي الرازي^(٣)، وأبي القاسم عبيد الله بن أحمد بن محمد بن بكران، الذي قرأ عليه نصر بن إبراهيم الحديث لفظاً في جمادى الآخرة سنة سبعين وأربعمائة في نفس المسجد^(٤). وكان عبد الله السقاء شيخ صالح يجاور الجامع بالقدس، وكان يقرأ كل ليلة سورة ﴿قل هو الله أحد﴾ مائتي مرة ولا أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرأيت في بعض الليالي مائتي شاة مقطعة الرؤوس وقائلاً: يقول لي: هذه لك، فقلت: فلم هي مقطعة الرؤوس، فقال: لأنك لم تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم^(٥).

وقد ضم المسجد الأقصى بين جنباته المقدسة العديد من الأماكن التي شكلت مراكز علمية مزدهرة في القدس، ومواضع مهمة يلقى العلماء فيها دروسهم، وكانت المراكز العلمية في المسجد الأقصى، ومن هذه الأماكن:

أ- المحاريب: فقد كان في «مسجد القدس لعامة الأنبياء المعروفين لكل واحد منهم محراب معروف»^(٦)، وصل عددها إلى «سبعة محاريب، منها: محراب مريم، ومحراب زكريا، ومحراب يعقوب»^(٧).

- محراب يعقوب عليه السلام: كان يلتقى عنده المحدثون لينهلوا من بعضهم، فقد ذكر أبو القاسم بن السمرقندي بأنه قرأ على أبي بكر محمد بن أحمد بن أبي القاسم الطوسي المقرئ إمام الصخرة المقدسة بالقدس، وقال له: «أخبركم أبو حفص عمر بن أحمد بن محمد الخطيب الواسطي قراءة عليه وأنت تسمع بالقدس في محراب يعقوب سنة ٤٤٠هـ»^(٨).

- محراب معاوية: كما كان هناك محراب يسمى بمحراب معاوية، وقد كان «أبو الحسن

١- ابن سلفه الأصبهاني، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني، صدر الدين: الجزء الثاني من المشيخة البغدادية، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ص ٥٦.

٢- ابن سلفه الأصبهاني، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفه الأصبهاني، صدر الدين (المتوفى: ٥٧٦هـ): التاسع والعشرون من المشيخة البغدادية، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ٢٠٠٤م، ص ١٠.

٣- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٣٦، ص ٤٤٥. القفطي: إنباه، ج ٢، ص ١٩٠.

٤- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥٣، ص ٤٤٧.

٥- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٦٢، ص ١٦. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين (١٤٢٤هـ): المحاضرات والمحاورات، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ص ١٥٩.

٦- الإصطخري: المسالك، ص ٥٧.

٧- البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (١٩٩٢م): المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، ج ١، ص ٤٦٩.

٨- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٥١، ص ٨٩.

علي بن الحسن الصيرفي البغدادي (كان حياً في ٣٢٠هـ)، رجلاً زاهداً متعبداً، وكان يتكلم على الناس بعد صلاة العصر في مسجد القدس في محراب معاوية، فقال له بعض الشيوخ: علام يستند الشيخ؟، فقال: ما حولت وجهي عن القبلة إلا وقفت عيني على ما أكره؛ وما رؤى قط إلا متوجهاً إلى القبلة»^(١)، وقد «رزقه الله لساناً في علم التوحيد يدق عن مسامع كثير من الناس...، وتوفي هذا الشيخ رضي الله عنه وهو في صلاة الوتر قرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما قال: ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ فاضت نفسه رحمة الله عليه»^(٢).

- **مهد عيسى عليه السلام:** وقد «اجتمع الإمام أبو حامد الغزالي وإسماعيل الحاتمي وأبو الحسن البصري وإبراهيم الشباك (وجماعة كثيرة من أكابر الغرباء) بالمسجد الأقصى، (في مهد عيسى عليه السلام) فأنشدهم مُنشدٌ هذين البيتين:

فديتُك لولا الحُب كنت فديتني ولكنَّ بسحرِ المقلتين سبيتني
أتيتُك لما ضاق صدري من الهوى ولو كنتَ تدري كيف شوقي أتيتني

فتواجد أبو الحسن البصري وجداً أثر في الحاضرين، وتوفي محمد الكازروني من بين الجماعة في ذلك المجلس ورفع ميتاً»^(٣).

ب- قبة الصخرة:

ومن مساجد القدس نذكر أيضاً مسجد قبة الصخرة المشرفة داخل سور المسجد الأقصى، وأبرز من تولى الإمامة فيه: أبو بكر محمد بن أحمد بن علي، الطوسي، الصوفي المقرئ^(٤)، وقد استشهد في شعبان ٤٩٢هـ مع من قتل على يد الصليبيين الذين هاجموا المدينة المقدسة^(٥).

وقد جرت في مسجد قبة الصخرة العديد من المناظرات واللقاءات العلمية بين العلماء، أورد ابن العربي مثلاً لواحد من اللقاءات التي حضرها، فيقول: «ورد علينا بالمسجد الأقصى سنة سبع وثمانين وأربعمائة فقيه من عظماء أصحاب أبي حنيفة يعرف بالزوزني^(٦) زائراً للخليل

١- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): «تاريخ بغداد وذيوله»، دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ج ١٨، ص ٢١٢. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤١، ص ٣٤٦.

٢- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤١، ص ٣٤٦.

٣- الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ٢١، ص ١٤٢. وانظر: ابن عساكر: تاريخ، ج ٦٢، ص ٤٦. وما بين التوسين أضفناها منه.

٤- روى عن: عمر بن أحمد الواسطي، وروى عنه: أبو القاسم بن السمرقندي. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٤، ص ١٣٢.

٥- الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٢٤، ص ١٣٢.

٦- هذه النسبة إلى زوزن وهي بلدة كبيرة حسنة بين هراة ونيسابور. السمعاني: الأنساب، ج ٦، ص ٣٤٢.

صلوات الله عليه فحضرنا في حرم الصخرة المقدسة (طهرها الله) معه، وشهد علماء البلد، فسئل عن العادة على قتل المسلم بالكافر، فقال: يقتل به قصاصاً؛ فطولب بالدليل، فقال: الدليل عليه قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٧٨). وهذا عام في كل قتل، فانتدب معه للكلام فقيه الشافعية بها وإمامهم عطاء المقدسي (ت: ١٢٥هـ/٧٥٢م)^(١)، وقال: ما استدل به الشيخ الإمام لا حجة له فيه من ثلاثة أوجه: أحدها: أن الله سبحانه قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ (البقرة: ١٧٨)، فشَرَطَ المساواة في المجازاة، ولا مساواة بين المسلم والكافر؛ فإن الكفر حط منزلته ووضع مرتبته، الثاني: أن الله سبحانه ربط آخر الآية بأولها، وجعل بيانها عند تمامها، فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى﴾ (البقرة: ١٧٨)؛ فإذا نقص العبد عن الحر بالرق، وهو من آثار الكفر، فأحرى وأولى أن ينقص عنه الكافر، الثالث: أن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة: ١٧٨)؛ ولا مؤاخاة بين المسلم والكافر؛ فدل على عدم دخوله في هذا القول. فقال الزوزني: بل ذلك دليل صحيح، وما اعترضت به لا يلزم من شيء. أما قولك: إن الله تعالى شرط المساواة في المجازاة، فكذلك أقول. وأما دعواك أن المساواة بين الكافر والمسلم في القصاص غير معروفة فغير صحيح؛ فإنهما متساويان في الحرمة التي تكفي في القصاص، وهي حرمة الدم الثابتة على التأييد؛ فإن الدَّمِيَّ مُحَقَّنُ الدَّمِ على التأييد، والمسلم محقون الدم على التأييد، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام، والذي يحقق ذلك أن المسلم يقطع بسرقة مال الذمي؛ وهذا يدل على أن مال الذمي قد ساوى مال المسلم؛ فدل على مساواته لدمه؛ إذ المال إنما يحرم بحرمة ماله.

وأما قولك: إن الله تعالى ربط آخر الآية بأولها فغير مُسَلَّم؛ فإن أول الآية عامٌ وآخرها خاص، وخصوص آخرها لا يمنع من عموم أولها؛ بل يجري كل على حكمه من عموم أو خصوص. وأما قولك: إن الحر لا يقتل بالعبد، فلا أسلم به؛ بل يقتل به عندي قصاصاً، فتعلقت بدعوى لا تصح لك. وأما قولك: فمن عفي له من أخيه شيء يعني المسلم، فكذلك أقول، ولكن هذا خصوص في العفو؛ فلا يمنع من عموم ورود القصاص، فإنهما قضيتان متباينتان؛ فعموم إحداهما لا يمنع من خصوص الأخرى، ولا خصوص هذه يناقض عموم^(٢). ويذكر أبو حامد الغزالي أنه بعد رحلته

١- عطاء بن أبي مسلم: أحد الكبار، اسمه ميسرة ويقال عبد الله أبو أيوب ويقال أبو عثمان ويقال أبو محمد ويقال أبو صالح الخراساني، بلخي مولى المهلب بن أبي صفرة سكن الشام ومن الشام إلى القدس، وحديثه عن أبي الدرداء والمغيرة بن شعبة وابن عباس وجماعة مرسل، وروى عن سعيد بن المسيب وعروة وابن بريدة وعطاء بن أبي رباح وعمرو ابن شعيب ونافع وعدة، وعنه شعبة ومعمّر ومالك والثوري وحماد بن سلمة وإسماعيل بن عياش وخلق. حتى إن شيخه عطاء روى عنه، وثقه ابن معين، توفي أبي بأريحا سنة خمس وثلاثين ومائة. انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٤٠، ص ٤٢٣. الذهبي: تاريخ، ج ٨، ص ٤٩٠، سير، ج ٦، ص ٢٨٧.

٢- ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م): أحكام القرآن، راجع =

إلى دمشق اتجه إلى القدس، فيقول» وأدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي»^(١). وذكر خسرو أنه كان «يقيم في بيت الصخرة جماعة من المجاورين والعابدين»^(٢).

وقد سمع عبد الرحمن بن عبد الساتر بن الحسن أبو محمد المقدسي، من أبو القاسم مكي بن عبد السلام بن الرميلى بباب الصخرة المقدسة في سنة (٤٨٥هـ)^(٣).

ج- قبة السلسلة: أشار إليها ابن العربي، وذكر أنه قد اعتكف على القراءة فيها^(٤).

د- الغوير^(٥): الواقع بين باب الأسباط^(٦)، ومحراب زكريا^(٧)، كان يقيم فيه، الشيخ العالم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وكانت تعقد فيه حلقات الدرس، والمناظرة بحضور العلماء والفقهاء من أهل القدس وغيرهم من العلماء الوافدين^(٨). وكان الطلبة يحضرون إلى «الغوير»؛ حيث يقيم الشيخ الطرطوشي، فيأخذون عنه، وقد ذكر ابن العربي، أنه قابل الطرطوشي في هذا المكان، وسمع كلامه وحظي به، ثم قال: «وانفتح لي به إلى العلم كل باب، ونفعني الله به في العلم، وتيسر لي على يديه أعظم أمل، فاتخذت بالقدس مكاناً، والتزمت فيه القراءة، لا أقبل على دنيا ولا أكلم إنسيا، نواصل الليل بالنهار»^(٩).

ثالثاً: المدارس:

لم تظهر المدارس في فلسطين في فترة الدراسة، باستثناء القدس، التي ظهرت فيها المدارس في القرن الخامس الهجري، خلال الحكم العبيدي، والسلجوقي لها، وكان يتم فيها

= أصوله وخرج أحاديثه وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، بيروت - لبنان، دار الكتب العلمية، ط٣، ج١، ص ٩٠-٩١.

١- المنقذ من الضلال، تحقيق: عبد الحليم محمود، مصر، دار الكتب الحديثة، ص ١٧٦.

٢- خسرو: سفرنامه، ص ٦٧.

٣- ابن عساكر: معجم، ج١، ص ٥٤٢.

٤- قانون التأويل، ص ٤٢٥. مع القاضي، ص ٢٠٥. انظر: عباس: فصول، ص ٥٦؛ رحلة ابن العربي، ص ٨٠-٨١.

٥- ذكر ناصر خسرو مقام الغوري في المسجد الأقصى بالقدس، والذي بناه الأمير ليث الدولة نوشتكين الغوري، الوالي الفاطمي، ولعله هو نفسه الغوير الذي ذكره ابن العربي في رحلته. خسرو، ناصر (١٩٨٣م): سفرنامه، المحقق: يحيى الخشاب، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط٢، ص ٦٩.

٦- باب الأسباط: أحد أبواب مدينة القدس من جهة الشرق وهو الموضع المعروف بالمهد، ومنه يهبط الدرج إلى القسم السفلي من الحرم، ويقع على الجانب الشمالي للمسجد الأقصى، عَرْضُهُ سَبْعُ أَذْرُعٍ وارتفاعه اثنتا عشرة ذراعاً. خسرو: سفرنامه، ص ٥٩.

٧- يقع في مسجد عمر بجوار الباب الشرقي للمسجد، في محيط المسجد الأقصى. خسرو: سفرنامه، ص ٥٩. العلمي: الأنس، ج٢، ص ١٢.

٨- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (١٢٨٤هـ/١٩٦٤م): الجامع لأحكام القرآن أو تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة، دار الكتب المصرية، ط٢، ج٨، ص ٣٣٩. ابن العربي: قانون التأويل، ص ٤٢٥. انظر: أعراب: مع القاضي، ص ٢٠٥. عباس: فصول، ص ٥٦. عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ٢٢. السلي: معاهد، ص ٣٠.

٩- قانون التأويل، ص ٤٢٥. انظر: أعراب: مع القاضي، ص ٢٠٥. عباس: فصول، ص ٥٦؛ رحلة ابن العربي، ص ٨٠-٨١.

تدريس العلوم الدينية، وكان القرآن أول ما يدرّس ويحفظ للطلاب، بالإضافة إلى علم الحديث وروايته، والفقه، والتفسير، وإلى جانب العلوم الدينية، كانت يتم تدريس علوم اللغة بمختلف فروعها^(١). ومن أهم المدارس التي كانت معروفة في القدس في فترة الدراسة:

١ - المدرسة النَّصْرِيَّة^(٢) :

كانت من المراكز العلمية المشهورة بالقدس، في القرن الخامس الهجري، وكان موقعها بجانب باب الرحمة، نسبة إلى مؤسسها الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي (ت: ٤٩٠هـ/١٠٩٦م)^(٣)، «يقراً للعلم مدة طويلة»^(٤)، وعُرفت هذه المدرسة أيضاً باسم المدرسة الغزالية، لإقامة الإمام الغزالي بها عند قدومه إلى القدس سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م)^(٥)، ولأهمية هذه المدرسة، ودورها الفاعل في تنشيط وإحياء العلوم الشرعية من فقه وحديث وغيرها.

٢ - المدرسة الشافعية :

عند باب الأسباط، وكان يرأسها الشيخ يحيى بن علي المعروف بابن الصائغ^(٦)، وكان

١- الدباغ، مصطفى مراد (١٩٨٨م): «الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين»، منشورات اليسار، ط ٢، ص ٢٤. علي، محمد كرد (د.ت): «خطط الشام»، بيروت - لبنان، دار العلم للملايين، ج ٦، ص ٦٦. النقاش، زكي (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م): «العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية»، بيروت، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، ص ٩٢. البيضاوي، سعيد عبد الله (١٩٩١م): «نابلس، الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية في عصر الحروب الصليبية» ٤٩٢-٦٩٠هـ/١٠٩٩-١٢٩١م. د.ن عمان، الأردن، ص ٢٠٣-٢٠٤.

٢- انظر: علي: خطط، ج ٦، ص ١١٧. وذكر العسلي بأنها أسست حوالي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، أي في العهد الفاطمي الشيعي. انظر: العسلي، معاهد، ص ٤٦، ٩٦. ويبدو أن هذه المدرسة، وهي مدرسة سنية، لم تكن قائمة في ظل الحكم الفاطمي الشيعي، الذي كان يناهض ويقاوم فكر أهل السنة من المذاهب الأخرى مثل الحنفي والشافعي، وحيث أن حكم الفاطميين كان قد انتهى في القدس سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، بقدوم السلاجقة السُنيّين، واستمرار حكمهم مدة ٢٨ سنة (٤٦٣-٤٨٩هـ/١٠٧٠م-١٠٩٦م)، إذن، ومما لا شك فيه أن هذه المدرسة السُنية كانت قد أنشئت في عهد السلاجقة، أي في سنة ٤٦٣هـ/١٠٧٠م أو بعد ذلك، وليس في سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م أثناء الحكم الفاطمي كما يقول العسلي.

٣- العلمي: الأنس، ج ٢، ص ٢٨، ٢٤. النعمي: الدارس، ج ١، ص ٢٥١. ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٤، ص ١٠٢. العارف، عارف (١٤٢٠هـ/١٩٩٩م): «المفصل في تاريخ القدس»، القدس- فلسطين، مطبعة المعارف، ط ٥، ص ٢٤٠. عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ١٥.

٤- العلمي: الأنس، ج ٢، ص ٢٨.

٥- م. س. ص، ج ١، ص ٤٣٤. العسلي: معاهد، ص ٩٨.

كانت هناك زاوية في الجانب الغربي من الجامع الأموي بدمشق، أطلق عليها اسم زاوية الشيخ نصر المقدسي، وعرفت أيضاً باسم المدرسة الغزالية، لإقامة الإمام الغزالي بها مدة. انظر: النعمي: الدارس، ج ١، ص ٣١٢-٣١٤.

٦- ابن الصائغ: أبو الفضل، الشيخ الإمام الفقيه الكبير القاضي يحيى بن علي الدمشقي الشافعي، ولد سنة ٤٤٣هـ/١٠٥١م، وتوفي سنة ٥٣٤هـ/١١٣٩م، للمزيد عن ترجمته، انظر: ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج ٦٤، ص ٢٤١. ابن الأثير: الكامل، ج ٨، ص ٧٥٧. السبكي: طبقات، ج ٧، ص ٣٢٤. ابن تغري بردي: النجوم، ج ٥، ص ٢٦٦. الذهبي: سير، ج ١٤، ص ٥٤١-٥٤٠. العبر، ج ٤، ص ٩٢. ابن العماد الحنبلي: شذرات، ج ٤، ص ٢٦٢-٢٦٣.

يجتمع فيها فقهاء الشافعية للدرس والمناظرة^(١).

٣- مدرسة أبي عقبة:

وهي مدرسةٌ للحنفية، وكان شيخها القاضي الريحاني^(٢)، وكلتا المدرستين (مدرسة أبي عقبة والشافعية) أُسستا في فترة حكم السلاجقة، وتمتعتا بمستوى علمي عالٍ، وقد نافستا المسجد الأقصى في المجال التعليمي^(٣).

رابعاً: دور العلم الصوفية:

وهي مراكز علمية ذات طابع صوفي، ومن أهمها:

١- الخانقاوات^(٤):

لعبت الخوانق دوراً مهماً إلى جانب المدارس والرُّبُط والزوايا في مجال الحياة الفكرية والعلمية، في التدريس، والقراءة، والتفسير، وعلوم اللغة، فتخرج فيها علماء كثر، وتصدر فيها مشايخ وصفوا أنهم جهابذة زمانهم، وكان للخوانق دور ديني وثقافي واجتماعي خلال العصور الإسلامية المتعاقبة، وذات طابع صوفي، وعلى الرغم من أنها صوفية المنشأ إلا أنها تُعد مراكز علمية كثرت فيها دروس الفقه والتفسير التي كانت تُلقى على مسامع المريديها، وهي لا تختلف عما كان يدور في المراكز العلمية الأخرى^(٥).

-
- ١- قانون التأويل، ص ٤٤٢. مع القاضي، ص ٢٠٣. انظر: عباس، رحلة ابن العربي، ص ٦٥، ٨٠، ٨٣. العسلي: معاهد، ص ٣٠. عبد المهدي: الحركة، ص ٢١. يوسف، محسن: «مقدمة في تاريخ التعليم في فلسطين منذ الفتح العربي الإسلامي حتى الاحتلال البريطاني»، المؤتمر الدولي الثاني للدراسات الفلسطينية، رام الله، جامعة بيرزيت، ط ١، (١٤١٨هـ/١٩٩٧م)، ص ٢٢.
- ٢- لم أعثره على ترجمة، وقد ذكره ابن العربي بأنه قاضي القدس، وأشار له في معرض حديثه عن المناظرة التي دارت بينه، وبين الصاغانى. انظر: قانون التأويل، ص ٤٤٢. مع القاضي، ص ٢٠٩.
- ٣- قانون التأويل، ص ٤٤٢. مع القاضي، ص ٢٠٩. انظر: عباس: رحلة، ص ٦٥، ٨٠، ٨٣. العسلي: معاهد، ص ٣٠. عبد المهدي، الحركة، ص ٢١. يوسف، مقدمة، ص ٢٢.

٤- الخانقاوات: مفردتها خانقاه، وهي كلمة فارسية تعني الدار التي يقيم بها المتصوفة انظر: المقرئ، المواعظ، ج ٢، ص ١٤٤، وقد كثرت الخانقاوات ببلاد الشام، ويشير إلى ذلك ابن جبير بقوله: «وأما الرباطات جمع (رباط) التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر، وهذه الطائفة من الصوفية هم الملوك بهذه البلاد، لأنهم قد كناههم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعاش، وأسكنهم في قصور تذكركم قصور الجنان، فالسعداء الموفقون منهم قد حصل لهم بفضل الله تعالى نعيم الدنيا والآخرة، وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة، وسيرتهم في التزام رتب الخدمة غريبة وعوائدهم من الاجتماع للسمع المشوق جميلة وربما فارق منهم الدنيا في تلك الحالات المنفعل المتأبر رقة وتشوقاً وبالجملة فأحوالهم كلها بديعة وهم يرجون عيشاً طيباً هنيئاً. انظر: ابن جبير: رحلة، ص ٢٣١، وقد كان لصوفية الخانقاوات دور سياسي متميز، وعن ذلك انظر: ناصف، أحمد عبد السلام أحمد: «دور الصوفية في صد الهجمة الصليبية على ديار الإسلام في مصر والشام (٤٩٠-٧٩٨هـ/١٠٩٦-١٢٩٨م)»، رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة طنطا، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

٥- عبد الله، دولت (د.ت): «معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والملوكي»، القاهرة، ص ٢١٨، ٢٧٣.

وقد أسهمت بنصيب وافر في التعليم^(١)؛ حيث أن نظام الإقامة والتعليم داخل الخانقاوات كان يخضع لتنظيم دقيق، فقد كان لها موظفون للوظائف الدينية والتعليمية منهم شيخ الخانقاه، ومدرسو الخانقاه، وإمام الخانقاه، وناظر وقف الخانقاه، وصوفية الخانقاه، ونزلاء الخانقاه^(٢)، كما كان لها موظفون للوظائف الخدمية مثل: كاتب الغيبة، وشاهد الشؤنة، وشاهد المخبز والمزملاتي، والطباخ، ومقدم النعال^(٣).

وقد تحدث المقدسي (ت: ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) صراحة عن وجود الخوانق في القدس، والتي كان بعضها مخصصا لفرقة الكرّامية^(٤) فكان «لهم خوانق ومجالس»^(٥). والواضح هنا من الجمع الذي ذكره المقدسي (ت: ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) للخوانق دليل على وجود عدد كبير من الخوانق، والتي منها ما كان مخصصا للكرامية.

٢- الزوايا^(٦) :

لا تزودنا المصادر بكثير من المعلومات حول الزوايا في القدس في فترة الدراسة، لكن من المعلوم أن القدس كانت تُعقد فيها الدروس في زوايا المساجد^(٧)، وكان لإبراهيم بن أدهم المتصوف زاوية وأتباع في المسجد الأقصى^(٨)، ومسجد قبة الصخرة^(٩)، وكما كان لفرقة

١- رباعية، إبراهيم: «الخوانق في القدس خلال العصر العثماني»، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد الثامن عشر، العدد الأول، يناير ٢٠١٠م، ص ٦٦٦.

٢- رزق، عاصم محمد (د. ت.): «خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي»، القاهرة، مكتبة مدبولي، ج ١، ص ١٢٨.

٣- رزق: خانقاوات، ج ١، ص ١٢٨.

٤- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٩، ١٨٢.

٥- المصدر نفسه، ص ١٧٩.

٦- الزوايا: مفردا زاوية وهي من البناء ركنه، لأنها جمعت بين فطرين منه وضمت ناحيتين، والمسجد غير الجامع ليس فيه منبر، يقال له زاوية، كما أنها مأوى للمتصوفين والفقراء انظر المعجم الوجيز، مادة زوى، ص ٢٩٧، وهي موضوع للأنزواء، وكانت في بداية الأمر عبارة عن تجمعات دينية ينزوي فيه للدرس ومن يتحلّقون حول الشيخ وكانت في ركن من المساجد الجامعة. انظر: المقرئزي: المواعظ، ج ٢، ص ٢٥٥. عبد الله، دولت: «معاهد تزكية النفوس في مصر في العصر الأيوبي والمملوكي»، القاهرة، (د. ت.)، ص ٥٢.

٧- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٩، ١٨٢.

٨- الدينوري، أحمد بن مروان الدينوري المالكي، أبو بكر (١٤١٩هـ): المجالسة وجواهر العلم، المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، البحرين - أم الحصم، جمعية التربية الإسلامية، بيروت - لبنان، دار ابن حزم، ج ٧، ص ٨٩. أبو نعيم الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها: ١ - دار الكتاب العربي - بيروت. ٢ - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت. ٣ - دار الكتب العلمية - بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق)، ج ٨، ص ٥٠.

٩- القشيري: عبد الكريم بن هواز بن عبد الملك (د. ت.): الرسالة القشيرية، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور محمود بن الشريف، القاهرة، دار المعارف، ج ١، ص ٢٣٠.

الكرامية إلى جانب الربط مجالس وزوايا^(١).

وذكر الرحالة خسرو الذي زار القدس في القرن الرابع الهجري أنه لاحظ صومعتين للصوفية في المسجد الأقصى^(٢).

وكان تدريس العلوم والمعارف الإسلامية هو الغالب على الزوايا، ثم تطور وأصبح عليها الجمع بين الطابع العقائدي والسياسي^(٣)، وقد ساهمت هذه الزوايا بدور كبير في نشر الثقافة والعلوم الإسلامية.

٣- الرُّبْط^(٤)؛

وقد لعبت أيضاً دوراً مهماً في إثراء العملية التعليمية في القدس، حيث توفرت بها الكثير من المَقُومَات لإنجاح العملية التعليمية، وأولها فراغ البال من شأن المعيشة، ويشير إلى ذلك ابن جبير بقوله: «فمن شاء الفلاح من نشأة مغربية فليرحل إلى هذه البلاد ويتغير في طلب العلم فيجد الأمور المَعِينَات كثيرة».

فأولها: فراغ البال من أمر المعيشة وهو أكبر الأعوان وأهمها، فإذا كانت الهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر إلا من يدين بالعجز والتسويق^(٥).

وثانيها: هو وجود خزائن للكتب بها، وبها مواضع للقراءة والنسخ والتأليف وإلقاء المحاضرات، فكان كل ذلك يشجع العلماء على المكوث بها لفترات طويلة^(٦).

وقد «كان لأصحاب ابن كرام رباط بالقدس، ... وكان بذلك الرباط جماعة من أصحابه

١- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٩.

٢- سفرنامه، ص ٥٩.

٣- عبد الله: معاهد، ص ٥٢.

٤- الرُّبْط مفرداً رِبَاط، ورِبَاطُ الخيل مرابطها لخمس منها فما فوقها، والرِّباط ملجأ للفقراء من الصوفية، والمُرَابطة الجماعة من الناس والخيل تلزم الثغر مما يلي العدو، انظر: المعجم الوجيز، مادة (ربط)، ص ٢٥٢، والرِّباط عبارة عن مبنى حصين يقيم فيه المرابطون للتعبد والاستعداد للحرب، ويكون بهذا البناء خلاوي لإقامة الصوفية، وبه فتحات للمزاغل وأماكن للمراقبة هذا بالإضافة إلى وجود أماكن للصلاة ويكون بها محراب، والرِّباط في الأصل دار يسكنها عسكريون، والمُرَابطة هي ملازمة ثغور العدو، والمُرَابطة هو من يدافع عن وراءه، وقد شاع تشييد الأربطة على حدود الدولة الإسلامية، فيما بين القرنين الثاني والثالث الهجريين، وكان الرباط عادة ما تتكون من مساحة مستطيلة يتوسطها صحن بجانبه القبلي مصلى وعلى الجوانب الأخرى قاعات المرابطين وفي الأركان أبراج المراقبة، وللرباط مدخل واحد حتى يمكن الدفاع عنه عند الهجوم عليه، وبعد أن تغير نظام الثغور، بنيت بعض الأربطة في أماكن أهلة بالسكان، حيث خصص بعضها لأرامل النساء والمطلقات والبنات الأيتام، انظر: نويصر، حسني محمد: «العمارة الإسلامية في مصر عصر الأيوبيين والمماليك»، مركز التميز لعلوم الإدارة والحاسب، ١٩٩٨م، ص ١٥٣-١٥٤.

٥- ابن جبير: رحلة، ص ٢٣٢.

٦- معروف، ناجي (١٩٧٥م): «أصالة الحضارة العربية»، بيروت، ص ٤٦٥.

مُظْهِرِينَ لِلنَّاسِ، وكان بالقدس رجل يقال له هُجَامُ يُحِبُّهُمْ وَيُحَسِّنُ ظَنَّهُ بِهِمْ، فَتَنَاهَا الْفَقِيهَ أَبُو الْفَتْحِ نَصْرَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْمَقْدِسِيَّ (ت: ٤٩٠هـ) عَنْ إِحْسَانِهِ الظَّنَّ بِهِمْ، فَقَالَ: الْمَالُ، فَهُمْ مَا ظَهَرَ لِي، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ رَأَى هُجَامَ فِي الْمَنَامِ كَأَنَّهُ اجْتَازَ بِرِبَاطِهِمْ، فَرَأَى كَأَن حَاطَظَهُ كُلَّهُ نِبَاتَاتِ النَّرْجِسِ، فَاسْتَحْسَنَهُ فَمَدَّ يَدَهُ لِيَتَنَاوَلَ مِنْهُ شَيْئاً، فَوَجَدَ أَصُولَهُ فِي الْعِذْرَةِ، فَقَصَّ رُؤْيَاهُ عَلَى الْفَقِيهِ نَصْرٍ، فَقَالَ: هَذَا تَصْدِيقُ مَا قُلْتَ لَكَ، إِنَّ ظَاهِرَهُمْ حَسَنٌ وَبَاطِنُهُمْ خَبِيثٌ^(١). وَمِنَ الْحوَارِ السَّابِقِ يَبْدُو أَنَّ مَنَاطِرَاتٍ وَمَسَاجِلَاتٍ عِلْمِيَّةً كَانَتْ تَجْرِي دَاخِلَ الْأَرْبُطَةِ، وَخَارِجَهَا، فَلَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ الْمَذْهَبِ الْكُرَّامِيِّ ظَاهِرَهُمْ أَمَامَ النَّاسِ حَسَنٌ؛ لَكِنْ عَقِيدَتُهُمْ فَاسِدَةٌ، وَمِنَ خِلَالِ الْحوَارِ الْعِلْمِيِّ الَّذِي جَرَى بَيْنَ هُجَامٍ، وَبَيْنَ فَقِيهِ الْقُدْسِ، اسْتَغْلَ نَصْرُ الْفَقِيهِ قُدْرَتَهُ عَلَى تَعْبِيرِ الرُّؤْيَى لِيُثْبِتَ لِهُجَامٍ فُسَادَ مَذْهَبِهِ، بِالْحُجَّةِ وَالْبَرْهَانِ وَالِدَلِيلِ الْعَقْلِيِّ. وَيَبْدُو أَنَّ مَكَانَ هَذَا الرِّبَاطِ كَانَ يَقَعُ تَحْدِيداً عِنْدَ الْعُمُودِ الَّذِي عِنْدَ مَشْهَدِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ أَنَّ ابْنَ كُرَّامٍ صَاحِبَ الرِّبَاطِ «أَقَامَ بِالْقُدْسِ أَرْبَعَ سَنِينَ، وَكَانَ يَجْلِسُ لِلْوَعْظِ عِنْدَ الْعُمُودِ الَّذِي عِنْدَ مَشْهَدِ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢) «عَلَى بَابِ الْمَهْدِ فِي جَامِعِهَا شَرْقِيَّ بَابِ الْقُدْسِ»^(٣)، «وَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ خَلْقٌ كَثِيرٌ فَجَاءَهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ بَعْدَ مَا سَمِعَ أَهْلَ الْقُدْسِ مِنْهُ حَدِيثاً كَثِيراً فَسَأَلَهُ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ عَنِ الْإِيمَانِ، فَأَمْسَكَ عَنْ الْجَوَابِ فِيهِ، فَسَأَلَهُ ثَانِي مَرَّةً، فَاسْتَغْلَلَ عَنْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ ثَالِثَ مَرَّةً، وَقَالَ: هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ يَسْأَلُكَ إِنْسَانٌ عَنْ مَسْأَلَةٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَتَتَشَاغَلَ عَنْهُ مَا تَقُولُ فِي الْإِيمَانِ، فَأَجَابَهُ، وَقَالَ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ، فَلَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ حَرَقُوا الْكُتُبَ الَّتِي قَدْ كَتَبُوا عَنْهُ، وَنَفَاهُ مَتَوَلِيهَا إِلَى غُورِ زَغَرَ فَمَاتَ بِهَا، وَنُقِلَ إِلَى الْقُدْسِ... وَقِيلَ: بِأَنَّهُ تُوْفِيَ بِالْقُدْسِ لَيْلاً، وَدُفِنَ بِبَابِ أَرِيحَا عِنْدَ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ»^(٤).

خامساً: دور العلم:

لعبت دور العلم والتي كانت تعرف من قبل باسم بيت الحكمة، أو دار الحكمة، أو خزائن الحكمة^(٥) دوراً مهماً في إثراء الحركة العلمية. فقد تطورت في هذه الفترة، وأصبحت بمثابة معاهد عامة تضم قاعات خاصة تلقى بها المحاضرات في العلوم المختلفة^(٦)، إلى جانب احتوائها على خزائن للكتب^(٧)، تضم مختلف العلوم والآداب، من فقه، ونحو، ولغة، وكيمياء، وطب. وسمح

١- ابن عساکر: تاریخ دمشق، ج ٥٥، ص ١٣٠. الصفدي: الوافي، ج ٤، ص ٢٦٦. ابن حجر، أبو الفضل أحمد ابن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (١٢٩٠هـ/١٩٧١م): لسان الميزان، الهند، دائرة المعارف النظامية، بيروت - لبنان، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ط ٢، ج ٥، ص ٣٥٥.

٢- ابن كثير: البداية، ج ١١، ص ٢٦. العلمي: الأنس، ج ١، ص ٢٩٦.

٣- ابن عساکر: تاریخ دمشق، ج ٥٥، ص ١٢٩.

٤- المصدر نفسه، نفس الجزء والصفحة. ابن كثير: البداية، ج ١١، ص ٢٦. العلمي: الأنس، ج ١، ص ٢٩٦.

٥- الملا، أحمد علي: «أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوروبية»، دمشق، ١٩٨١م. ص ٥٦، ٥٧.

٦- قاسم، محمود الحاج: «الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات»، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٧هـ، ص ٢٢٣، ٢٢٤.

٧- معروف: أصالة، ص ٤٥٧.

لمن رغب بالتردد عليها كيفما شاء^(١). وهذا يعني أن دور العلم خلال تلك الفترة أصبحت أعم وأشمل من خزائن الكتب القديمة، والتي كانت عبارة عن أماكن تخزين فيها كتب للإطلاع عليها ونقلها وترجمتها، ويعبر المقرئ عن هذه النقطة التي حدثت في نظم دار العلم أو الحكمة بقوله: «وحضرها الناس على طبقاتهم فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم»^(٢)، أي للتعلم على يد العلماء الذين كانوا يحضرون بهذه الدور.

وفي القدس، مثل هذه الدور، فأنشأ العبيديون في القدس: دار العلم الفاطمية، التي كانت لها شأن عظيم في القرن الخامس الهجري، وهي فرع لدار العلم الفاطمية، القائمة بالقاهرة^(٣)، تهدف إلى نشر المذهب الفاطمي، وكانت مركزاً يعج بالنشاط الفكري، تعقد فيها المجالس العلمية الكثيرة^(٤).

سادساً: المجالس العلمية الخاصة والعامة:

دلت إشارات عديدة في المصادر على تدارس العلم و الوعظ، والأدب و تلقيه في عدد من الأماكن غير المساجد، كان منها بيوت الأمراء ومجالسهم، وبيوت العلماء ودورهم.

ففي مجالس الأمراء وُجد العلماء لنشر العلم، ووعظ الحكام والأمراء والولاة، فقد زار محمد ابن عبد الله بن أحمد بن محمد بن إسحاق، أبو بكر الرباطي الأصبهاني^(٥) (ت: ٤٢٠هـ)^(٦) «القدس وسمع به وأملى مجالس»^(٧).

ولم يقتصر الأمر على قصور الأمراء والعلماء، فكانت تتم بعض النقاشات في بيوت العلماء

١- المقرئ: المواظ، ج ١، ص ٤٥٨.

٢- المصدر نفسه، ج ١، ص ٤٥٨، ٤٥٩.

٣- وتعرف أيضاً بدار (الحكمة)، أسسها بالقاهرة، الحاكم بأمر الله في أواخر القرن الرابع الهجري (٣٩٥هـ/١٠٠٤م)، وعين لها طائفة من الفقهاء والقراء والنحويين، ورجال الحديث والأدب واللغة وعلماء الهيئة والطب والرياضة والمنطق والفلسفة، وضمت الدار مكتبة ضخمة نقلت إليها الكتب في سائر العلوم والآداب. انظر: المقرئ: المواظ، ج ١، ص ٤٥٨. ابن تقي بري: النجوم، ج ٤، ص ٢٢٣.

٤- بدوي، أحمد أحمد: «الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام»، القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، (د.ت)، ص ٢٧. السيد، الدولة الفاطمية، ص ٥٨٥. حمادة، محمد ماهر: «المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما»، ط ٢، بيروت، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، (١٣٩٨هـ/١٩٧٨م)، ص ١٠٠-١٠١. زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج ٣، ص ٢٣٠. يوسف: مقدمة، ص ٢١.

٥- الأصبهاني: بكسر الالف أو فتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة والهاء وفي آخرها النون بعد الالف، هذه النسبة إلى أشهر بلدة بالجزيرة، خرج منها جماعة من العلماء في كل فن قديماً وحديثاً وصنف في تاريخها كتب عدة قديماً وحديثاً. السمعاني: الأنساب، ج ١، ص ١٧٥.

٦- سمع: أبا القاسم الطبراني، وعبد الله بن الحسن بن بندار، وأبا بكر الجعابي، وأبا أحمد العسال، وإبراهيم بن محمد بن إبراهيم الرقاعي شيخ مسند يروي عن محمد بن سليمان الباغندي. وروى عنه: عمر بن الحسن بن سليم المعلم، وأبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن مردويه، وجماعة.

٧- الذهبي: تاريخ، ج ٢٨، ص ٤٩٠.

أيضا، فقد «زار السلطان تاج الدولة تشن الفقيه أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي، المعروف بابن أبي حافظ (ت: ٤٩٠هـ)، فلم يبق له، ولا التفت إليه، وكذا ولده دقاق، وسأله دقاق: أي الأموال أحل؟ فقال: مال الجوالي، فبعث إليه بمبلغ، فلم يقبله، وقال: لا حاجة بنا إليه، .. فلأمه نصر الله المصيصي، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فقال: لا تجزع، فسوف يأتيك من الدنيا ما يكفيك فيما بعد. فكان كما تقرس فيه»^(١).

وكان للمجالس العلمية التي يعقدها العلماء دور كبير في نشر التعليم خلال فترة الدراسة، حيث كان العلماء يدرسون العلم في ضياعهم، وداخل منازلهم في مجالس خاصة. حيث يتردد عليهم الطلبة والمشتغلون بالعلم الشرعي، وغيره من العلوم ليقروا عليهم كتب العلماء، ويفسرونها ويشرحونها لهم، فقد «قرأ على أبي الفتح أبو الفتح محمد بن إبراهيم بن محمد بن يزيد الطرسوسي المعروف بابن البصري (ت: نحو ٤١٠هـ) بالقدس في منزله»^(٢)، وذكر أبو طاهر محمد بن أحمد ابن أبي الصقر اللخمي الأنباري (ت: ٤٧٦هـ) أنه قد قرأ على أبو الفرج عبيد الله بن محمد بن يوسف النحوي «في منزله .. بالقدس»^(٣)، وعلى أبو الفرج عبيد الله بن محمد بن يوسف النحوي الدين «في منزله في سطح موسى بالقدس»^(٤)، وحدث أبا محمد عبد العزيز بن أحمد بن عمر النصيبي المقدسي، «أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد بن الواسطي المقدسي الخطيب في منزله بالقدس»^(٥).

وقد نقل عن (أبو سعد السمعاني) في أدب الإملاء، قوله «أخبرنا أبو الفتح نصر بن القاسم بن الحسن الفلسطيني^(٦) من أهل القدس بقراءتي عليه على باب داره»^(٧).

١- المصدر نفسه، ج ٢٣، ص ٢٤٦-٢٤٧.

٢- سلفه الأصبهاني، صدر الدين، أبو طاهر السلفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م): الطيوريات، من أصول: أبو الحسين المبارك بن عبد الجبار الصيرفي الطيوري، دراسة وتحقيق: دسمان يحيى معالي، عباس صخر الحسن، الرياض، مكتبة أضواء السلف، ج ٢، ص ١٠١٨. الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ج ١، ص ٤١٥.

٣- ابن أبي الصقر، أبو طاهر محمد بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن أبي الصقر اللخمي الأنباري (١٤١٨هـ/١٩٩٧م): مشيخة أبي طاهر ابن أبي الصقر (مطبوع مع معجم مشايخ أبي عبد الله بن عبد الواحد الدقاق ومجلس إملاء في رؤية الله تبارك وتعالى)، المحقق: الشريف حاتم بن عارف العولي، الرياض - السعودية، مكتبة الرشد، ص ٩١.

٤- المصدر نفسه.

٥- المقدسي: فضائل، ص ٩٦.

٦- نصر بن القاسم بن الحسن: أبو الفتح الأنصاري، المقدسي، الفقيه المقرئ، قال الحافظ ابن عساكر: هو الذي لقنني القرآن. وكان ثقة يصلي في مسجد عمر الذي على الدرج، ويلقن فيه، سمع من: أبي القاسم علي بن أبي العلاء، وأبي محمد بن البري، وحدث. وعاش أكثر من ثمانين سنة، توفي نصر بن قاسم سنة تسع وثلاثين وخمس مئة. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٦٢، ص ٤٠. السمعاني، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ): التحبير في المعجم الكبير، المحقق: منيرة ناجي سالم، بغداد، رئاسة ديوان الأوقاف، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ج ٢، ص ٢٤٥: المنتخب من معجم شيوخ السمعاني، دراسة وتحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، الرياض، دار عالم الكتب، ص ١٧٩٢. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٣٦، ص ٥٢٥.

٧- الأنساب، ص ١١٤.

ومن ذلك يتضح لنا أن بيت الرجل ومجلسه في فترة الدراسة كان أشبه بمدرسة يأتي التلاميذ إليها ليتعلموا على يد هذا العالم وذاك، كما يدل على ازدهار الحياة العلمية لتشمل جميع الأماكن، ولا تقتصر على الأماكن المخصصة لذلك. كما كان بعض العلماء يلقون دروسهم على الطلبة والراغبين في المعرفة خارج منازلهم في مجالس عامة متمثلة في: الدكاكين، والساحات، والأسواق، وكانت هذه المجالس تتميز بحرية كبيرة؛ لأن الطالب كان حراً في اختيار المعلم أو العالم الذي يدرس عليه عكس المدارس المنظمة^(١) التي يفرض فيها على الطالب عالم أو معلم بعينه.

والجدير بالذكر أن المرأة الفلسطينية في فترة الدراسة لم تكن بعيدة عن أجواء المجالس العلمية الحافلة، ومن هؤلاء النسوة نذكر فاطمة النيسابورية (ت: ٢٢٣هـ)، وقد «قال لها ذو النون: عظيمي، وقد اجتمعنا بالقدس، قالت له: إلزم الصدق وجاهد نفسك في أفعالك»^(٢).

سابعاً: المكتبات:

وقد تنوعت المكتبات، فكان منها: العامة كالتي أنشئت في المساجد، والمدارس، والزوايا، والرُّبُط، والخوانق، والخاصة: التي كوَّنها الأمراء والوزراء والمتقنون لأنفسهم^(٣).

ويُعد المسلمون أول من أسرع إلى التدوين خارج الجزيرة العربية، وخاصة في بلاد الشام، وتعد المصاحف من أهم الكتب التي كان يتم الاحتفاظ بأعداد كبيرة منها في المساجد، والبيوت، والمكتبات الملحقة بالمساجد، ففي القدس، حفظت لنا سجلات محاكم القدس الشرعية إحصاء بتركات علماء القدس من المكتبات التي تشتمل على موضوعات متعددة مما يدل على إطلاع واسع لدى هؤلاء العلماء، فبقيت خزائن الكتب العلمية العامة في القدس تحتوي على ذخائر التراث العربي الإسلامي، وكان من بينها: خزائن المسجد الأقصى، وخزائن كتب المدارس، ودار كتب المسجد الأقصى، ومكتبة المتحف الإسلامي^(٤).

وقد أشار ابن عبد ربه إلى أن المسجد الأقصى «فيه من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد، ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها»^(٥).

كما احتوت مكتبة المسجد الأقصى على أمّهات كُتب المحدثين، كالزهري مثلاً، وقد استفاد

١- عبد العاطي، عبد الفتي محمود: «التعليم في مصر، زمن الأيوبيين والمماليك»، القاهرة، دار المعارف، (٢٠٠٢م)، ص ٣٠٧.
 ٢- ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م): صفة الصفوة، المحقق: أحمد ابن علي، القاهرة- مصر، دار الحديث، ج ٢، ص ٢١٥.
 ٣- المقرئزي: المواعظ، ج ١، ص ٤٥٨.
 ٤- العسلي: معاهد العلم، ص ١٥، العارف: المفضل، ص ٤٥١.
 ٥- ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب ابن حدير بن سالم الأندلسي (١٤٠٤هـ/١٩٨٤م): العقد الفريد، بيروت، دار الكتب العلمية، ج ٧، ص ٢٩١.

منها العلماء وطلبة العلم، وتداولوها فيما بينهم، وروا من خلالها عن الإمام الزهري^(١).

من خلال ما تقدم... نرى أن مكتبة المسجد الأقصى، فضلاً عن بقية مكتبات المدارس، ومكتبات الأسر المقدسية في القدس، كانت كبقية المكتبات في العالم الإسلامي، ومركزاً للحياة العلمية والفكرية، وكتبت المصنفات الكثيرة في تلك المكتبات العامة والخاصة واشتهر منها كتب الفضائل، وكتب المعارف العامة الأخرى^(٢).

ومن خلال هذه المؤلفات والكتب، نرى الدور الذي لعبته تلك المكتبات في الحياة العلمية والثقافية، وبيان سعة اطلاع علماء القدس على التراث العربي الإسلامي.

ثامناً: البيمارستانات؛

أما البيمارستانات^(٣)، فقد كانت بمثابة معاهد علم فيها مكتبات، وتضمّ فيها محاضرات تلقى على طلبة العلم، وكانت مفتوحة أمام كل طالب علم وإن كان معسراً^(٤).

١- الداني، عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو (٢٠٠٤م): كتاب في علم الحديث، مخطوط نُشر في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، ص ٦١. عياض، عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن يحيى السبتي، أبو الفضل (١٣٧٩هـ/١٩٧٠م): الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، المحقق: السيد أحمد صقر، القاهرة، دار التراث، تونس، المكتبة العتيقة، ص ١١٩. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٨، ص ٢١٢. ابن العديم: بغية، ج ٢، ص ١٤٦٦. ابن كيكلي، صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلي بن عبد الله الدمشقي (١٤٠٧هـ/١٩٨٦م): جامع التحصيل في أحكام المراسيل، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، بيروت، عالم الكتب، ط ٢، ص ٩٩. المزي، يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (١٤٠٠هـ/١٩٨٠م): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المحقق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة - بيروت، ج ٢، ص ٤٢٢. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (١٢٢٦هـ/١٩٠٨م): تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ج ١، ص ٢٣١. السخاوي: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، شمس الدين أبو الخير (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م): فتح المغيب بشرح ألفية الحديث للعراقي، المحقق: علي حسين علي، الناشر: مصر، مكتبة السنة، ج ٢، ص ٢٧. الأمير، محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسيني، الكحلاني ثم الصنعاني، أبو إبراهيم، عز الدين (١٤١٧هـ/١٩٩٧م): توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، المحقق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت- لبنان، دار الكتب العلمية، ج ٢، ص ٢١٢. وانظر: الزهراني، محمد بن مطر بن عثمان آل مطر أبو ياسر (١٤١٧هـ/١٩٩٦م): تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، الرياض، المملكة العربية السعودية، دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط ١، ص ١١.

٢- الخالدي، أحمد سامح: «المعاهد المصرية في القدس»، القدس، المطبعة العصرية، (د.ت). ص ٢٥. العسلي: معاهد العلم، ص ٢٠.

٣- البيمارستان: كلمة فارسية معناها (المستشفى) وهي مؤلفة من كلمة (بي) ومعناها «بدون» و(مار) ومعناها «الحياة والحيوية» (ستان) ومعناها «مكان»، فمعنى الكلمة كلها: مكان للمرضى، قال الجوهري في الصحاح: المارستان دار المرضى. انظر: الجوهري: الصحاح، ج ٢، ص ٩٧٨. عبد الدائم، عبد الله: «التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى أوائل القرن العشرين»، بيروت، دار العلم للملايين، ط ٢، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ص ١٦٢.

٤- ابن أبي أصيبعة، أبو العباس موفق الدين أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي (د.ت): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، المحقق: الدكتور نزار رضا، بيروت، دار مكتبة الحياة، (د.ط) ص ٤٧. وانظر: علي، داود سلمان (١٩٨٩م): «معالم الفكر العربي في التراث العربي»، بغداد، مركز إحياء التراث العلمي، ج ١، ص ٢٧.

ومن أهم البيمارستانات التي ورد ذكرها والحديث عنها في القدس في فترة الدراسة، البيمارستان الذي أنشأه العبيديون في القدس (٣٩٥هـ/١٠٠٤م)^(١)، ويعتقد أنه أول مستشفى أسس في القدس، وهو من المعاهد العلمية الكبرى التي أسسها العبيديون في هذه البلاد^(٢)، وهو من البيمارستانات البديعة جداً في مدينة القدس^(٣)، وكان يقع على حافة وادي جهنم في القدس ووادي جهنم^(٤) قريب من سور الأقصى من الجهة الشرقية، ويعتقد البعض أنه ربما كان في الجزء الجنوبي خلف المسجد الأقصى^(٥)، وقد وصفه ناصر خسرو^(٦) بأنه «مستشفى عظيم، عليه أوقاف طائلة، ويصرف لمرضاة العديد من العلاج والدواء، و به أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف»^(٧). ولم يذكر معلومات إضافية عن هذا المستشفى، فلم يتحدث مثلاً عن: أقسامه، أو عن عدد المرضى الذين يمكنه استيعابهم، أو أسماء الأطباء العاملين فيه، وغير ذلك من التفاصيل الأخرى.

ولعل هذا البيمارستان كغيره من بيمارستانات ذلك العصر كان له مهمة تعليمية بالإضافة إلى المهمة الرئيسية التي يضطلع بها، ألا وهي المهمة العلاجية، ففيه كان الطلاب يتعلمون العلوم الطبية والصيدلانية، ويتدربون على أيدي أطباء مهرة^(٨)، ويبدو أن هذا المستشفى، الذي وصفه خسرو بالعظيم، كان من المراكز الطبية المهمة، ويتسع لعدد كبير من المرضى، خاصة وأنه بقي يقدم خدماته في فترة الاحتلال الفرنسي للقدس، وقد عمل الصليبيون على توسيعه^(٩). وممن تولى الإشراف على هذا البيمارستان: عبد الجليل بن عمر بن محمد بن بكران أبو محمد المقدسي المعروف بابن الخواتيمي الطبيب^(١٠).

وتتحدث بعض المراجع عن وجود مستشفى يدعى شارل (في القرن الثالث الهجري)^(١١)،

١- المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٧. خسرو: سفرنامه، ص ٥٧.

٢- الخالدي: المعاهد المصرية، ص ٥.

٣- العارف: الفصل، ص ١٤١.

٤- وصل ناصر خسرو إلى القدس سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٦م، خسرو: سفرنامه، ص ٥٦.

٥- http://bimaristan-alquds.blogspot.com/p/blog-page_1782.html

٦- خسرو: سفرنامه، ص ٥٧.

٧- المصدر نفسه. عبد المهدي: الحركة الفكرية، ص ٤١. الدباغ: بلادنا، ج ٢، ص ١٣٦. السعيد، عبد الله عبد الرزاق مسعود

(١٤٠٨هـ/١٩٨٧م): « المستشفيات الإسلامية من العصر النبوي إلى العصر العثماني »، عمان، دار الضياء للنشر والتوزيع،

ص ٢٥٣.

٨- ابن أبي أصيبعة: عيون، ص ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٩.

٩- السعيد: المستشفيات، ص ٢٥٣.

١٠- ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج ٢٤، ص ٤١.

١١- محمود، شفيق جاسر أحمد (١٩٨٤): « تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى

الحروب الصليبية »، عمان، دار البشير، ص ٢٢٠.

وقد أسس هذا المستشفى في القدس الملك شارلمان في زمن العباسيين^(١)، وكان الغرض من إنشائه إيواء الحجاج من النصارى، ومعالجة مرضاهم أثناء قدومهم من أوروبا إلى القدس^(٢).

ولكن لا يُعرف موقعُ هذا المشفى بالضبط^(٣). ويعتقد أن مشفى الحجاج المسيحيين الأول القديم قد هدم مع كنيسة القيامة في زمن حكم الخليفة العبيدي الحاكم بأمر الله (٣٧٥-٤١١هـ/٩٨٥-١٠٢١م) في عام (٣٩٥هـ/١٠٠٥م)، وتفيد المصادر المسيحية أن مشفى القديس جون (يوحنا) الذي أسس لاحقاً لخدمة الحجاج المسيحيين بالقرب من كنيسة تحمل نفس الاسم قد أذن ببنائه، وإعادة بناء كنيسة القيامة الخليفة علي الزاهر ابن الحاكم بأمر الله، وذلك بأموال وتبرعات من تجار ألمافي وساليرنو الإيطاليين في عام (١٢هـ/١٠٢٣م) لعلاج الحجاج المسيحيين^(٤).

وكانت الدراسة في البيمارستان تنقسم إلى: جانب نظري، وجانب عملي، حيث كان يخصص بكل بيمارستان قاعة يجتمع فيها رئيس أطباء البيمارستان مع تلاميذه ومعاونيه الأطباء، حيث يقرأ عليهم بعضاً من الكتب الموجودة بخزانة القاعة، وبعد انتهائه منها، تبدأ المناقشات التي قد تمتد لساعات^(٥).

ثم ينتقل بعد ذلك رئيس الأطباء مع تلاميذه ومعاونيه إلى حجرات المرضى، حيث تتم المعاينة والكشف، ويشرح لتلاميذه كل حالة على حدة، وطريقة العلاج لها، وكان يخصص وقت أكثر لدراسة الحالات المستعصية، التي تستلقت الانتباه ويدور حولها البحث والنقاش والتحليل والشرح والطلبة يدونون ويسجلون ما يدور في الجلسات حتى يمكنهم الرجوع إليه عند الحاجة إليه^(٦).

الخاتمة

أظهرت الدراسة عدداً من النتائج:

- ازدهرت الحياة العلمية ونشطت في القدس في الفترة موضوع الدراسة، وظهر ذلك جلياً

١- خسرو: سفرنامه، ص ٥٥.

٢- عفيفي، محمد: «الوجود القبطي في القدس حتى القرن العشرين»، أبحاث الندوة السادسة، هوية القدس العربية والإسلامية ٥-٢ تشرين الأول/ ديسمبر ١٩٩٥م، عمان، ص ١٠٠.

٣- حتى أعمال التقيب التي جرت لاحقاً والتي أقيمت في أرض البيمارستان الصلاحي قبل بناء كنيسة الفادي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم تستطع العثور على ما يدل على مكان مشفى الحجاج القديم هذا.

http://bimaristan-alquds.blogspot.com/p/blog-page_1782.html

٤- http://bimaristan-alquds.blogspot.com/p/blog-page_1782.html

٥- عيسى، أحمد (١٣٥٧هـ/١٩٣١م): «تاريخ البيمارستانات في الإسلام»، دمشق، ص ٢٠٩، ٢١٠.

٦- هونكه، زيعزید (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م): «شمس العرب تسطع على الغرب»، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط ١٠، ص ٢٣٤.

- من خلال تعدد المراكز التي مورست فيها الأنشطة العلمية المختلفة.
- تعددت مراكز الحياة العلمية في القدس وتنوعت بشكل كبير ولافت.
 - لم تكن المساجد - كما يظن البعض - هي المركز الوحيد للتعليم وإلقاء الدروس، فكان هناك المدارس والكتاتيب والعديد من المراكز التي تم الإشارة إليها.
 - استمرت المراكز العلمية في أداء رسالتها العلمية، وفي استقبال الطلبة والعلماء من مختلف بقاع العالم الإسلامي، رغم ما شاب الحياة السياسية في كثير من الأحيان من تغيرات وتقلبات.
 - استقبلت المراكز العلمية في القدس العديد من العلماء وطلبة العلم واحتضنتهم، وخرَّجت العديد من العلماء الأجلاء، وجرت فيها العديد من الدروس، والمناقشات، والمناظرات العلمية المهمة، وصنّف فيها هؤلاء العلماء أهم نتاجاتهم الفكرية.
 - ساهمت الدول المتعاقبة على حكم القدس في فترة الدراسة في ترك بصمات علمية، من خلال تأسيس ودعم المراكز العلمية في القدس، وترميمها وحمايتها، وكان ذلك وفقاً لسياستها المذهبية، والعقدية.
 - كانت مراكز الحياة العلمية في القدس منارات إشعاع علمي، وكان المسجد الأقصى على رأس هذه المراكز، بل وأهمها على الإطلاق.